ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

الحياة الثقافية في مدينة تلمسان خلال العهد العثماني

د. عبد الرحمن بالأعرج
أستاذ محاضر في قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يستعرض هذا المقال التاريخ الثقافي لمدينة تلمسان خلال العهد العثماني، ويركز على البعد التاريخي مدينة تلمسان والأحداث السياسية التي شهدتها خلال الحكم العثماني، وأبرز المؤسسات التعليمية والثقافية، وأشهر العلماء الذين برزوا في العلوم الدينية بالخصوص. والمعلوم أن تلمسان من مدن الغرب الجزائري، وكانت حاضرة للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط (منذ عهد السليمانيين الأدارسة والمرابطين والموحدين إلى غاية العهد الزياني)، وقد استقطب المدينة التيارات الفكرية والثقافية من المشرق والمغرب والأندلس، ولما تم إلحاقها بالحكم العثماني خفت إشعاعها الفكري نظرًا لمجموعة من العوامل أبرزها هجرة علمائها إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وتدهور مؤسساتها التعليمية، وكثرة الاضطرابات السياسية. ورغم هذا الوضع إلا أنها بقيت من مراكز العلم في البلاد الجزائرية طيلة القرون الثلاثة التي حكم فيها العثمانيون البلاد، وظهر بها مجموعة من الأعلام في العلوم الدينية. وكان التصوف من بين المجالات التي برزن على الساحة الاجتماعية والثقافية، وصار طاهرة شجعها العثمانيون، وصارت الزوايا التي غالبًا ما كان يؤسسها رواد الطرق الصوفية تقوم بدور هام في التعليم والخدمات الاجتماعية للعامة. وحافظت المساجد على دورها التعليمي والديني إضافة إلى المدارس التي كانت موجودة منذ العهد الزياني مثل المدرسة التاشفينية.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٢ أبريل ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢٥ أغسطس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
المجتمع الجزائري، الحكم العثماني، الطرق الصوفية، تاريخ الجزائر الحديث

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041870

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد الرحمن بالأعرج. "الحياة الثقافية في مدينة تلمسان خلال العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص٥٦ – ٦٢.

مُقَدِّمَةُ

يهدف الموضوع إلى إبراز الانتقال الذي شهدته مدينة تلمسان من كونها عاصمة لمملكة بني زيان ودارًا للعلم والعلماء، ومركزًا من مراكز الإشعاع الثقافي في المغرب الإسلامي، إلى مجرد مركز للحامية العثمانية في بايليك الغرب الجزائري، والأسباب التي أدت إلى ذلك، كما يهدف إلى التعريف بأبرز أعلام تلمسان خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر الميلادي إلى غاية القرن التاسع عشر الميلادي، وإثارة مجموعة من الإشكاليات التي يمكن أن تجد الإجابات من خلال توفير المادة الوثائقية اللازمة لدراسة مرحلة العهد العثماني في مدينة تلمسان، هذه المادة العلمية التي لا تزال طي الكتمان، وبحاجة إلى التنقيب والبحث عنها لمعرفة المزيد عن التاريخ الثقافي ولما لا الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

١- إلحاق تلمسان بالحكم العثماني في الجزائر

شهدت عاصمة الزيانيين عدة اضطرابات سياسية مع مطلع القرن (١٠هـ/١٦م)، فازداد التنافس بين أفراد البيت الحاكم، كما شهدت السواحل هجمات الإسبان الذين ضيقو الخناق على المهاجرين الأندلسيين الفارين من غرناطة منذ سقوطها سنة ١٤٩٢م، وطاردوهم حتى في بلاد المغرب.[1] وفي خضم هذه الأحداث ظهر نشاط اثنين من البحارة العثمانيين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، هما خير الدين بربروس وأخوه عروج مع مجموعة من مجاهدي البحر، حيث استنجد بهم سكان

المدن الساحلية الجزائرية للتخلص من الخطر الاسباني فلبوا النداء دون تردد.[٢]

ولما تم تحرير مدينة تنس في جوان ١٥١٧م، على رأس جيش مكون من ألف جندي عثماني ووحدات من المهاجرين الأندلسيين، ضد حوالي (٥٠٠) جندي أسباني، ثم مدينة دلس، حاول عروج تحرير مدينة تلمسان التي كانت تسودها الفوضى تحت حكم عميل الإسبان أبي حمو الثالث الذي استولى على العرش بعد إطاحته بأبي زيان، وتوجه نحو المدينة سالكًا طريقًا داخليًا والتقى مع الجيش الزياني المكون من ٦٠٠٠ فارس، و٣٠٠٠ من المشاة وهزم الملك أبو حمو الثالث ودخل عروج تلمسان وعين أبا زيان ملكًا عليها.[٣]

لكن هذا الملك رفض لاحقًا اتباع سياسة عروج فقرر هذا الأخير التخلص منه، ثم قام حاكم وهران الاسباني بمساعدة أبي حمو الثالث للعودة إلى تلمسان فحاصرها، والتجأ عروج وجيشه إلى قلعة المشور، ثم توجه ناحية الغرب لكن جيش أبي حمو ألحق به الهزيمة في موقعة المويلح قرب مغنية واستشهد عروج عن عمر (٥٠) سنة وذلك في مايو ١٥١٨.[٤] واستمر الوضع في تقلب في تلمسان، وتولى الحكم أبو حمو محمد عبد الله الثاني سنة ١٥١٨ وحاول الوقوف محايدًا بين الإسبان والعثمانيين لكنه لم يفلح.[٥]

وبقيت المدينة في تجاذب بين هؤلاء وأولئك في ظروف ميزتها محاولة السعديين الاستيلاء عليها، حيث جهز الشريف محمد المهدي مؤسس الدولة السعدية في المغرب الأقصى حملة بقيادة ابنه محمد الحران لفتح تلمسان والمغرب الأوسط سنة ١٥٥٠م، وحاصرها لمدة تسعة أشهر ودخلها وأجلى عنها العثمانيين وامتد حكمه حتى وادي شلف، ثم جهز حسن بن خير الدين جيشا لقتالهم وتمكن الجزائريون من إرجاعهم وراء حدودهم في المغرب الأقصى.[٦] ثم دخل الجيش العثماني تلمسان ونصب عليها الأمير الحسن بن عبد الله الثاني، وقرر الأتراك هذه المرة السيطرة الفعلية على المدينة وجعل سلطة الملك رمزية تحت رقابة حامية تركية مكونة من ١٥٠٠ جندي، لكن طائفة الحضر لم ترض بهذا الملك فقاموا بخلعه سنة ١٥٥٤م، وأعلن صالح رايس نهاية دولة بني زيان وانضمام تلمسان نهائيًا إلى إيالة الجزائر.[٧] وشهدت المدينة خلال حكم العثمانيين عدة أحداث لعل أبرزها ثورة الكراغلة سنة ١٧٣٨هـ وثورة درقاوة مطالع القرن التاسع عشر الميلادي.[٨]

٢-الزخم الحضاري لمدينة تلمسان

كانت تلمسان على مر عصورها الإسلامية منارة علمية ومركز إشعاع ثقافي في العالم الإسلامي عمومًا وفي بلاد المغرب على وجه الخصوص، وقد برز دورها الثقافي خاصةً في عهد الأدارسة والسليمانيين ثم المرابطين والموحدين إلى أن جاء عهد بني زيان وبني مرين حيث شهدت إنشاء الكثير من المؤسسات الثقافية والعلمية كالمساجد والمدارس والمكتبات. هذا وكانت تلمسان تقع على الطريق الرابط بين فاس وتونس من جهة وبين البحر وحواضر الصحراء من جهة أخرى ما جعلها ملتقى لكل الثقافات المشرقية والمغربية. ولو أن دورها هذا قد خفت في العهد العثماني نظرًا لتنقل عاصمة الحكم إلى مدينة الجزائر، إلا أنها احتفظت بكونها دار لكبار بيوتات العلم في البلاد الجزائرية.

٣-الملامح العامة للحياة الثقافية في تلمسان

يكاد يجمع المؤرخون المختصون في تاريخ الجزائر العثمانية على أن هذه الفترة كانت فترة ركود علمي، حيث فقدت كبرى الحواضر ومنها تلمسان مركزها وإشعاعها الثقافي التي كانت تتمتع به العصور السابقة خاصة الفترة الزيانية، لكن الملاحظ؛ أن المدينة بقيت محافظة على نصيب من مكانتها العلمية نظرًا لاستمرار مؤسساتها الثقافية في تأدية وظائفها وبروز مجموعة من العلماء، إضافة إلى الأندلسيين الذين كان لهم دور كبير في بعث الحركة الثقافية في مدينة تلمسان ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي، حيث هاجر مجموعة كبيرة من العلماء والأسر العلمية بتراثهم وعلومهم فضلاً عن تنشيطهم للحياة الاقتصادية والاجتماعية وإدخال نظم جديدة.[٩] ولا ينبغي أن نهمل دور بعض الحكام العثمانيين أمثال الباي محمد الكبير في الجانب العلمي والثقافي، حيث كانت له علاقة حسنة مع رجال العلم والثقافة، وأدخل مجموعة كبيرة من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وكان له عناية كبيرة بالمؤسسات التعليمية كالمساجد والمدارس والزوايا.[١٠]

٤-المؤسسات الثقافية والتعليمية

إن ما ميز الحياة الثقافية في مدينة تلمسان هو الدور الكبير لمؤسساتها الثقافية والتعليمية، وكانت هذه المؤسسات تجمع بين الدور الديني والتربوي التعليمي، ولعل في مقدمتها المساجد التي بلغ عددها حوالي (٥٠) مسجدًا، كانت في معظمها صغيرة وكانت تعقد بها حلقات الدروس في العلوم الدينية، أما تحفيظ القرآن فكان يتم في الكتاتيب الملحقة بالمساجد، وأشهر مساجد المدينة قد تأسست في العهود الإسلامية الأولى وهي: مسجد أغادير[١١]، المسجد الكبير[١٢]، مسجد أبي الحسن التنسي،[١٣] مسجد أولاد الإمام[١٤]، مسجد إبراهيم المصمودي[١٥]، مسجد أبي مدين بالعباد[١٦]، مسجد سيدي الحلوي[١٧]. وكانت هذه المساجد تقوم بدورها الديني والثقافي والاجتماعي، كما وجدت مساجد أخرى بالأحياء وعادة ما كانت تلحق بها الكتاتيب[١٨] التي كانت مخصصة لتعليم الصبيان بعض المبادئ في الكتابة والقراءة وخاصةً تحفيظ القرآن، وكانت عبارة عن غرف بسيطة أثاثها مكون من حصير، وكانت أدوات الكتابة عبارة عن لوح خشبي مصقول ودواة وقلم من القصب وإناء للمحو.[١٩]

وكان إنشاء هذه المؤسسات خاصًا في الغالب أو كانت تبنى من قبل مجموعة من أولياء الصبيان، وخلال القرن (٨-٩ هـ/ ١٤-١٥م) ازدهرت الكتاتيب من حيث التنظيم والمواد المدرسة، وكان يشرف عليها مؤدبون ومقرئون.[٢٠] وقد استفادت مساجد المدينة من إصلاحات الباي محمد بن عثمان الكبير باي وهران وعنايته. أما المدارس، فكان في تلمسان زهاء خمس مدارس عُليا، إضافة إلى مدارس أخرى أقل شأنًا، وأشاد الحسن الوزان على الخصوص بعناية أهل تلمسان بتشييد المدارس والإنفاق عليها، رغم أنه قد حكم على أن فئة العلماء كانت من أفقر فئات المجتمع الأربع،[٢١] والمعروف أن زيارة الوزان تلمسان كانت عشية استقرار العثمانيين في الجزائر، ورغم قول بعضهم بأن تلك المدارس قد اندثرت من تلمسان فإن الفرنسيين قد وجدوا فيها بعد احتلالها خمسين مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي وهما مدرسة الجامع الكبير ومدرسة ابني الإمام، والمعروف أن الباي محمد الكبير هو الذي أعاد لمدرستي تلمسان أوقافها وجددها[٢٢]. ومن هذه المدارس: مدرسة إبني الإمام[٢٣]، المدرسة التاشفينية[٢٤]، مدرسة أبي مدين شعيب الغوث بالعباد[٢٥]، المدرسة اليعقوبية.[٢٦]

واللافت للنظر هو وجود مدارس خاصة بالجالية اليهودية المقيمة في المدينة، حيث شكلت تلمسان أكبر منطقة لتجمع اليهود في الحواضر الجزائرية في العهد العثماني إضافة إلى الجزائر العاصمة، حتى أن أملاكهم في القيصرية بلغت (١٥٠٠) محل تجاري، وكان لهم (١٧) معبدًا، وابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي أصبح يهود الجزائر يتتلمذون على أيدي أساتذتهم من تلمسان.[٢٧] وكانت لهم مدارس خاصة بهم، وكان التعليم فيها ينقسم إلى مرحلتين في المرحلة الأولى القراءة والمرحلة الثانية الكتابة والحساب، وكانوا يكتبون التوراة وتاريخهم باللغة العبرية التي كانت منتشرة بينهم، كما أن الأسر اليهودية كانت ترسل أبناءها إلى الدول الأوربية لتعلم بقية العلوم.[٢٨]

وشكلت الزوايا إحدى المؤسسات الثقافية والاجتماعية والدينية الهامة[٢٩]، وكانت تابعة للطرق الصوفية وكان عددها في الغرب الجزائري أكثر انتشارًا من المناطق الأخرى وذلك يرجع إلى استمرار الجهاد في الغرب إضافة إلى القرب من المغرب الأقصى مهد الزوايا والمرابطين. لقد شكلت الزوايا مقر قيادة وتربية وتعليم كتدريس علوم الدين والفقه ومبادئ القراءة والكتابة إضافةً إلى كونها مقر نزول أبناء السبيل حيث نجد المأوى والمأكل، كما لعبت في المجال الاجتماعي دورًا هامًا في التوسط لقضايا قضائية بين السكان. ولعبت دورًا هامًا على المستوى الأرياف في ظل غياب المدارس.[٣٠] وكان يشرف على الزاوية شيخ، وهو الذي كان يتولى التعليم بها أو الإشراف على أساتذتها وكان يساعده في إدارتها وكيل وعدد من المتطوعين. أما مواردها المالية فكانت من مداخل وغلات الأوقاف التي كانت تتبعها، إضافة إلى الزكاة والهدايا والتبرعات.[٣١]

لقد وضعت الزوايا الكثيرة نظامًا ولوائح لطلابها نذكر منها أنه كان لها سجل يقيد فيه أسماء طلاب الزاوية، وأن الخدمة اليومية داخل الزوايا يقوم بها الطلاب بالتناوب، كما يتولى ناظر من ذرية مؤسس الزاوية الأحباس الموقوفة عليها، وكان المأوى في الزاوية وقف على الطلاب العزب، وكان لزامًا على الطلبة احترام المقدم والوكيل، وأن مَنْ يهمل واجباته أو يخل بالنظام المعمول به يعاقب، كما كانت الزاوية تُعَدّ وجبتين من الطعام في الغذاء والعشاء. وكانت تحرص على ضرورة المحافظة على مواعيد الدروس وحضور الاجتماع الأسبوعي، كما تكفلت بتحديد العقوبات لكل نوع من أنواع الحوادث والمخالفات، وكان طلبتها يقومون برعي ماشية الزاوية وخدمة الأرض الموقوفة عليها، إضافة إلى قيامهم بجمع الأموال للزاوية من القبائل.[٣٢]

ويمكن القول؛ بأن النظام الداخلي للزوايا لم يكن الهدف منه التنظيم فحسب، وإنما كان أيضًا للتربية، وتهذيب الأخلاق وغرس الفضائل، وتدريب التلاميذ على الحياة العملية.[٣٣] وأشتهرت تلمسان بالزوايا التالية: الزاوية اليعقوبية، وزاوية سيدي أبي مدين بالعباد التي كانت تهتم بالتعليم واستقبال الطلبة الوافدين وكان لها عدة أوقاف مغلة من البساتين والضياع، وزاوية سيدي الحلوي، وزاوية سيدي السنوسي[٣٤]. إضافة إلى زاوية عين الحوت شمال تلمسان واشتهرت بكونها مهد السليمانيين أبناء عمومة الأدارسة وهم من الأشراف العلويين،[٣٥] واشتهرت بزاويتها التي نشأت خلال القرن (٤هـ/١٠م)، واهتمام بايات الغرب بها وبأوليائها.[٣٦] ووجود هذه الزوايا دليل على وجود نشاط صوفي ملحوظ خلال العهد العثماني، حيث قام العثمانيون بتشجيع التصوف وعملوا على التقرب من رجال الزوايا رغبة منهم في دعم سلطاتهم.[٣٧]

وقد وقع في بداية دخول العثمانيين إلى تلمسان أن عارض رجال التصوف هذا التدخل في حين وقف بعضهم مؤيدًا له، ومن أشهر المعارضين الشيخ أحمد بن ملوكة التلمساني الذي ورد ذكره في كتاب دوحة الناشر لابن عسكر "أن عروج عندما ارتكب مجموعة من الفظائع لما دخل المدينة ثم خرج إلى جبال بني سناسن، فخاف أهل تلمسان من عودته واشتكوا لابن ملوكة ما وقع بهم فانقبض الشيخ وغضب وضرب الأرض بيده ودعا على عروج قائلاً: "اللهم لا تعده إلى تلمسان إن اتكالنا عليك"، وأن الله قد استجاب الدعاء ومات عروج مقتولاً".[٣٨] كما اشتهر الشيخ للو التلمساني الذي يقال أنه سخط على حاكم تلمسان حفيظ التركي وخرج من تلمسان.[٣٩] وكان هناك مجموعة من المرابطين في المدينة قد وقفوا موقف وسط من الحكم التركي، أي أنهم لم يعارضوهم لكن كانوا يتدخلون عندهم ويعظونهم، ومنهم الشيخ سيدي العبدلي الذي كان رجلاً صالحًا وكان يتوسط لسكان تلمسان

إذا اشتكوا من تعسف الأتراك، وكان يذهب إلى القائد محمد بن سوري التركي في مقره ويعظه ويطلب منه إصلاح شؤون سكان تلمسان.[٤٠]

وكان التصوف مرتبطًا بالزوايا التي أدت الدور الاجتماعي والتعليمي، وكانت هذه الزوايا تابعة لمجموعة من الطرق لعل أبرزها القادرية والدرقاوية.[٤١] وضمت مدينة تلمسان بالإضافة إلى المساجد والمدارس والزوايا عددًا هامًا من المكتبات وذلك لتسهيل عملية التعليم، وكانت المكتبة تقع عادة بالمسجد أو المدرسة وقدرت بحوالي (٢٠) مكتبة[٤٢]، وزاد رصيدها من الكتب بعدما حل الأندلسيون بالمدينة ناقلين معهم كتبهم.[٤٣] لقد كانت معظم المؤسسات الثقافية مستقلة عن السلطة المركزية، وكانت عملية تمويلها وتسيير وظائفها تتم عن طريق الأوقاف الدينية، وكانت هذه الأحباس عبارة عن بنايات وأراضي وبساتين ومحلات حرفية وتجارية إضافة إلى المخابز والحمامات، وكان يديرها وكلاء معينون من طرف الداي والباي، ولم تكن لهم مرتبات محددة بل كانوا يتقاضون مبالغ رمزية. كما كانوا يأخذون من المداخيل التي يشرفون عليها المبالغ اللازمة لمصاريفهم. وكانت مداخيل المؤسسات الوقفية توظف في دفع رواتب الأئمة وقراء الأحزاب والمؤذن وشراء الزرابي والفراش وثمن الترميمات وشراء الزيت للمصابيح. وكان القاضي يشرف على إدارة ومراقبة هذه المصاريف بمساعدة كاتب وعشرة أشخاص من سكان المدينة.[٤٤]

٥- التعليم

يُعَدّ التعليم من العوامل المؤثرة في نمو الحياة الثقافية والحركة العلمية، وفي الوقت نفسه مظهرًا من مظاهر الازدهار الثقافي والعلمي، وكان يتم في المؤسسات التعليمية التي أنشئت في تلمسان، في الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا، وكان يمر عبر مراحل يتم فيها تحصيل مختلف المبادئ الأساسية للعلوم والمعارف ثم التعمق في المسائل الفرعية[٤٥]، ويمكن تقسيمها إلى:

الطور الابتدائي: حيث كان يلتحق فيه الأطفال بالكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة ومبادئ اللغة وحفظ القرآن، وكانت الأدوات الأساسية المستخدمة في هذه المرحلة تتمثل في الألواح الخشبية والأقلام القصبية والصلصال. وكان يقوم بعملية التدريس المؤدبون والطلبة والأئمة. وكان التعليم يتم مرتين في اليوم، الأولى في الصباح والثانية بعد الظهر، وكان عدد التلاميذ في حجرة الدرس حوالي (١٥) تلميذًا. وكان التلاميذ يدفعون للمدرسين نصيبًا من المال إضافة إلى بعض الهبات والهدايا التي كانت تمنح في المناسبات من طرف أولياء التلاميذ.

أما في **الطور الثاني**: فكان التلاميذ يتعلمون اللغة وفروعها كالنحو والصرف إضافة إلى علوم أخرى. في حين خصص الطور الثالث لتعليم العلوم الدينية المتمثلة في علم العقيدة وعلوم القرآن والفقه والحديث النبوي الشريف.[٤٦] وما يمكن قوله عن التعليم خلال هذه المرحلة هو غلبة الطابع الديني عليه، أما العلوم الأخرى كالطب والرياضيات والكيمياء فكانت أقل شأنا لكنها كانت موجودة لحاجة المجتمع إليها.[٤٧]

٦- من أعلام الفكر والثقافة في تلمسان خلال العهد العثماني

لم تخلو تلمسان من العلماء وأعلام الثقافة والتصوف في العهد العثماني، رغم التدهور الذي شمل المدينة، حيث انقلب بها الوضع من عاصمة لمملكة ومقر للملك والسلطان والحرف والصنائع والعلوم، إلى مجرد مدينة من مدن بايليك الغرب تسيطر عليها الحامية العثمانية. وقد حافظت الأسر العلمية على مكانتها وإنتاجها العلمي، وبرز مجموعة من العلماء ذاع صيتهم في المغرب والمشرق، والظاهر أن جلهم قد ولد ونشأ في تلمسان ثم انتقل منها إلى مدينة فاس التي كانت بمثابة العاصمة العلمية الجديدة للمغرب عامةً، وحافظت على تألقها الثقافي خاصةً خلال عهد السعديين، ومن أبرزهم نذكر:

٦/١- أبو العباس أحمد بن محمد العقباني: (أواخر ق١٠ هـ/ ق١٦م):[٤٨]

من بيت علم وفقه اشتهر بتولي أفراد أسرتهم القضاء لمدة تزيد على الثلاثة قرون من الزمن، وهو من فقهاء المالكية، كان مهتمًا بعدة علوم من علوم عصره، ولد في تلمسان وبها تعلم ونشأ ثم انتقل إلى فاس، حيث جلس للتدريس بجامع القرويين. قال عنه صاحب دوحة الناشر: "توفي بفاس في آخر العشرة الثامنة، وسلسلة سلفه سلسلة العلم والفضل".

٦/٢- محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني (٩٠٨- ٩٨١هـ/ ١٥٠٢ - ١٥٧٣م):[٤٩]

من أكابر علماء عصره، مفتي تلمسان وفاس، ولد وتعلم ونشأ في تلمسان ثم رحل إلى فاس سنة (٩٥٨هـ) فنال مكانة مرموقة عند السعديين وولوه خطط الإمامة، والخطابة والتدريس بجامع القرويين، وقدم إلى سوس صحبة السلطان عبد الله الغالب السعدي سنة (٩٨٠هـ)، فأقام بها معه سنة قدم خلالها للقراء بالجامع الكبير في تارودنت معارف غزيرة مستندة إلى دلائل متينة، فأخذ عنه الكثير من طلبتها. كما طالت أيام رياسته العلمية في فاس وانتفع به الكثير من الناس.[٥٠]

٦/٣- محمد بن شقرون التلمساني: (٩٠٨- ٩٨٣هـ/ ١٥٠٣-١٥٧٥م):[٥١]

عُرِفَ في المغرب "بمالك الصغير" وهو دلالة على مكانته بين معاصريه، وإلى جانب علوم الفقه، اهتم بعلوم أخرى كانت سائدة في عصره مثل المنطق، والفرائض والبيان وغيرها، ولد ونشأ وتعلم في تلمسان، وولي الإفتاء بها ومنها رحل إلى فاس سنة (٩٦٧هـ) فنال مكانة مرموقة عند الغالب بالله السعدي، فنصب له كرسيًا للتدريس داخل قصره "وقلده الفتوى ورئاسة العلم بمراكش

وسائر أقطار المغرب"، ولم يقتصر نشاطه العلمي على القصر الملكي بل تعداه ليشمل كثيرًا من العلماء وطلبة العلم في المغرب إلى غاية وفاته بفاس.

٤/٦- أبو العباس أحمد بن يعقوب العبادي تلمسان: (ت. ٩٨٠هـ/١٥٧٢م):[٥٢]

من أكابر علماء عصره، ولد ونشأ وتعلم في تلمسان، ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى واستقر في فاس سنة (٩٦٨هـ) مع جماعة من علماء تلمسان بسبب فتنة وقعت بينهم وبين العثمانيين، فحضي بمكانة مرموقة لدى حكام المغرب، فتصدر للتدريس في فاس مدة من الزمن، ثم رجع إلى تلمسان وكان بها وفاته.[٥٣]

٥/٦- أبو العباس أحمد بن يحي المقري (٩٨٦هـ-١٠٤١هـ/١٥٧٨-١٦٣١م):[٥٤]

مؤرخ وأديب عصره، محدث ومفسر ومتكلم، اشتهر في المغرب والمشرق. ولد في تلمسان وبها نشأ وتعلم ومنها انتقل إلى فاس سنة (١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) بحيث حضر مجلس علي بن عمران السملالي في جامع القرويين وناقشه في بعض مسائل الفقه الإسلامي، فاعترف له السملالي بالتفوق عليه وأقر له بقوه الحجة والبرهان والنباهة، ثم انتقل إلى مراكش في السنة نفسها، فعلم السلطان المنصور السعدي بمقدمة، فاستدعاه وقربه إليه وأكرمه، وربطت بينه وبين علماء المدينة علاقات علمية وودية، يذكرها هو نفسه في مؤلفاته. وفي منتصف سنة (١٠١٠هـ/١٦٠١م) عاد إلى فاس ثم غادرها بعد بضعة أشهر إلى مسقط رأسه تلمسان. وفي أوائل سنة (١٠١٣هـ/١٦٠٤م) عاد إلى فاس ثانية، فأُسندت إليه سنة ١٠٢٢هـ خطة الفتوى والخطابة والإمامة في جامع القرويين، وبقي بها نحو خمسة سنوات، أي حتى سنة ١٠٢٧هـ التي قد تكون من أزهى سنوات أحمد المقري عطاءً وخدمة للعلم وأهله، أما الشق الثاني من حياته (١٦١٨-١٦٣١م) فهو خاص بالمشرق.

٦/٦- أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني كان حيا سنة ١٦٠٥هـ:[٥٥]

لم تفدنا المصادر بالكثير عن حياته لكنه يذكر في البستان[٥٦] قائلاً : "كان والدي معلمًا للصبيان ... وتخرج عليه أولاد كثيرون يحفظون كتاب الله العزيز ومن عادته (رضي الله عنه) ختم القرآن في كل يوم"، ودرس بالجامع الأعظم عند أبي السادات[٥٧] وقد تولى التدريس وإقراء القران الكريم بوصية من والده، وقد تخرج على يده الكثير ممن يحفظون القرآن وصار بعضهم علماء يدرسون العلم ومن آثاره: تحفة الأبرار وعار الأخبار في الوظائف والأذكار المستحبة في الليل والنهار، فتح الجليل في أدوية العليل لعبد الرحمن السنوسي، كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد، تعليق مختصر على الرسالة في ضبطها وتفسير بعض ألفاظها. لكن هذه الكتب فُقِدت، وكتابه المتبقي هو البستان في ذكر أولياء والعلماء بتلمسان الذي قام بنشره المحقق العلامة الدكتور محمد بن شنب وتضمن (١٨٢) ترجمة لعلماء وأولياء المدينة، واتبع فيه الترتيب الهجائي معتمدًا على مجموعة من المصادر ذكرها في نهاية كتابه.[٥٨]

٧/٦-محمد بن عبد الكريم المجاوي: (١٢٠٨ -١٢٦٧هـ):[٥٩]

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن المجاوي الحسني ولد في تلمسان، وحفظ القران الكريم على والده كما تلقى على يده علوم اللغة العربية ثم التحق بفاس وأخذ عن علماء القرويين أمثال الشيخ حمدون بن الحاج السلمي، والحافظ الحجة الحاج الطيب ابن كيران وغيرهم، ثم عاد إلى مسقط رأسه حيت أسندت إليه وظيفة القضاء إلى مارسها بنزاهة و كفاءة لمدة ربع قرن، وكان خلالها يتولى التدريس، ثم عاد إلى فاس تارة أخرى ليشتغل بالتدريس بجامع القيروان مدة، ثم انتقل إلى طنجة وتولى قضائها القضاء وظل فيه إلى أن وفاة أجله في ٢٣ رجب ١٢٦٧ هـ. تخرج على يده علماء كانت لهم كلمتهم في الثقافة والفكر من أمثال: الشيخ صالح الشاوي، محمد بن عبد الواحد بن سودة، والشيخ محمد العلوي قاضي فاس، والعلامة أحمد بن حسون قاضي وزان. وله مجموعة من الخطب الدينية والشعرية.[٦٠]

٨/٦-سعيد بن عبد الله المنداسي: (ت. ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م)

هو أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي أصلاً التلمساني منشأً ودارًا، قرأ في تلمسان على علماء عصره، ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى، فأقام في فاس وزار مراكش واتصل بالسلطان مولاي إسماعيل العلوي ومدحه وبالغ في مدحه فأكرمه السلطان، ثم عاد إلى تلمسان وتوفي بها وقيل في سجلماسة وهو الأصح سنة (١٠٨٨هـ/١٦٧٧م). وكان المنداسي ينظم الشعر المعرب والملحون معًا، وشعره الملحون قريب من الفصيح، واشتهر بقصيدته المعروفة بالعقيقة في مدح النبي (ﷺ) التي قام بشرحها الشيخ أبو راس الناصري بسبعة شروح أشهرها "الدرة الأنيقة في شرح العقيقة".[٦١]

٩/٦-محمد بن محمد عبد الرحمن التلمساني (ت. ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م)

نشأ في تلمسان وقرأ على علمائها، واعتنى بعلم التاريخ، ومن تآليفه "الزهرة النائرة فيما أجرى في الجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة"، وصف فيها حملة الإفرنج على الجزائر في عهد خير الدين، وطبع هذا التأليف في الجزائر سنة ١٨٤١م.[٦٢]

١٠/٦- القطب التلمساني:

لا نعلم شيئًا عن حياته سوى ما ذكره عنه الشيخ محمد الحسين الأندلسي البليدي أصلاً المصري المنشأ الذي هو من رجال القرن الثاني عشر الهجري في كتابه "المقولات العشر"، والظاهر أنه كان معاصرًا للبليدي أو أقدم منه حيث أن هذا الأخير ينقل عنه.[٦٣]

١١/٦- أحمد بن محمد بن هطال التلمساني:

هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد الشهير بابن هطال التلمساني، تولى وظيفة كاتب ومستشار ومبعوث في المهمات الخارجية لمحمد الكبير باي الإيالة الوهرانية، ولابنه عثمان بعد وفاة محمد الكبير، واستشهد في معركة وقعت بين الأتراك وابن الشريف الدرقاوي سنة (١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م) في فرطاسة الواقعة بين واد مينا وواد العبيد، وخلف رسالة تاريخية عنوانها "رحلة محمد الكبير" طبعت في القاهرة سنة ١٩٦٩م.

خَاتِمَةٌ

إن الحديث عن التاريخ الثقافي لمدينة تلمسان خلال العهد العثماني هو ضرب من المجازفة العلمية، خاصةً في ظل شح المصادر التي تتعرض لهذا الجانب، ورغم العمق التاريخي والحضاري للمدينة التي تُعَدّ من مراكز العلم والثقافي في الجزائر خاصةً وبلاد المغرب عامةً، وكونها عاصمة لإقليم المغرب الأوسط ولمجموعة من الإمارات ودارًا لمملكة زناتة وعاصمة لبني زيان طيلة الفترة الممتدة بين القرنين (٧هـ-١٣م/ ١٠هـ-١٦م)، إلا أنها فقدت إشعاعها الفكري والثقافي في نهاية العهد الزياني، وظهور العثمانيين على السواحل الجزائرية، وضمهم للبلاد الجزائرية تحت حكمهم واتخاذهم من مدينة الجزائر الساحلية عاصمة لهم، ما تسبب في جعل مدينة تلمسان مجرد مدينة تقع على هامش إيالة الجزائر في الحدود الغربية تحت مراقبة حامية من الأتراك العثمانيين. هذا الوضع قد تسبب في ظهور الخلافات السياسية بين أعيان المدينة وبين الحاميات العثمانية مرارًا وتكرارًا، وقد حاول العلماء غير مرة التدخل لدى السلطة العثمانية المحلية من أجل فض الخلافات والنزاعات التي كانت تحدث بين الحين والآخر.

لقد كانت تلمسان خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخيها مقصدًا للجاليات الأندلسية الوافدة فرارًا من اضطهاد محاكم التفتيش، وقد ساهم الأندلسيون في إثراء الحياة الثقافية للمدينة من خلال ما أدخلوه من مراد علمية جديدة ومصطلحات لغوية وتراث فني وموسيقي غني، إضافةً إلى تخصصهم في الهندسة والبناء وصناعة النسيج والعطور وغيرها من المهن التي تدخل في حيز الثقافة. أما عن النشاط العلمي، فقد حافظت المدينة على بعض مؤسساتها العلمية كالمساجد والمدارس والزوايا التي كانت نشيطة منذ العصر الوسيط، وبرز مجموعة من العلماء في العلوم الدينية والتاريخ والتصوف، لكن الملاحظ من خلال تراجمهم بأن أغلبهم قد فضل الرحلة باتجاه مدينة فاس في المغرب الأقصى، ويمكن القول بأن الإشعاع الثقافي لمدينة تلمسان قد انتقل إلى فاس خلال هذه المرحلة التاريخية بشكل ملفت، والسبب وراء ذلك الخلافات التي كانت تنشب بين العلماء والأعيان التلمسانيين والحامية العثمانية، وتضييق الخناق عليهم، ورغم ظلك تواصل العطاء العلمي والتدريس والتأليف وإن كان بشكل أقل مما كانت عليه المدينة في العصور السابقة.

الهَوامِشُ:

(١) صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص٢٦.

(٢) محمد عمرو الطمار، **تلمسان عبر العصور**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٢٢٨.

(٣) عثمان سعدي، **الجزائر في التاريخ**، دار الأمة، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٣٧٤.

(٤) صالح عباد، المرجع السابق، ص٤٨.

(٥) الطمار، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

(٧) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص ٣٨٨.

(٨) بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، ج١، تح: يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٣٠٢.

(٩) أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري في العهد العثماني**، ص ٤٦١.

(١٠) بلبروات بن عتو، "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير بمدينة معسكر"، **حولية المؤرخ**، ع ٤/٣، ٢٠٠٥، ص ١٩٧.

(١١) التنسي، **تاريخ بن زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، تح: محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ١٢٥.

(□□) *Rachid Bourouiba,* ***l'art religieux Musulman en Algérie****, Sned, Alger, 1973, p .p. 71-72.*

(١٣) رشيد بورويبة، **الحياة الثقافية في العهد الزياني والمريني**، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي، ج٣، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٤٩٦.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٤٩٧.

(١٥) هو ابراهيم بن موسى المصمودي، أصله من صنهاجة المغرب قرب مكناسة، أخذ علومه على الابلي وغيره ثم نزل تلمسان ولازم أبا عبد الله الشريف بالمدرسة اليعقوبية، وبعد وفاته أخذ عن سعيد العقباني بالمدرسة التاشفية، ثم انقطع للعبادة وللتدريس، ولما توفي دفن بضريح الأمراء الزيانين بجانب المدرسة اليعقوبية، أنظر: ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تح: محمد بن شنب، نشر عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٦، ص ٦٤-٦٦.

(١٦) **العباد**: قرية صغيرة قرب تلمسان وهي مدفن القطب أبي مدين. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج٢، تح: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٤.

(١٧) هو أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان تولى قضاء اشبيلية في أواخر عهد الدولة الموحدية تم فر من القضاء وآوى إلى تلمسان في زي المجانين. انظر: يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج١، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٦٢، ص ١٢٧-١٢٨.

(١٨) هي جمع كتاب وهو مشتق من التكتيب وتعليم الكتابة. حسن عزوزي، "التأليف في القراءات في المغرب والاندلس"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، ع ١٩٩٣، ص ٢٤١.

(١٩) لخضر عبدلي، **الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان**، أطروحة دكتوراه دولة، قسم لتاريخ، جامعة تلمسان، ٢٠٠٥، ص ١٦٠.

(٢٠) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج١، ص ٢٦١.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣٣٤.

(٢٢) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢٣) التنسي، **تاريخ بني زيان**، ص ١٣٩.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٢٥) بالأعرج عبد الرحمن، **العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والمماليك**، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ جامعة تلمسان، ٢٠٠٨، ص ٣٤.

(٢٦) التنسي، المصدر السابق، ص١٧٩-١٨٠.

(٢٧) الواليش فتيحة، **الحياة الحضرية في بايليك الغرب الجزائري خلال القرن ١٨م**، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ جامعة الجزائر، ١٩٩٤، ص ١٥٩.

(٢٨) شويتام، المرجع السابق، ص٤٨٤.

(٢٩) الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص١٧١.

(٣٠) الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص١٧١.

(٣١) مختار فيلالي الطاهر، **نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني**، دار الفن القرافيكي، باتنة (د.ت) ص٢٧٢٨.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٩٨-٩٩.

(٣٣) الشريف كمال دحومان الحسني، **أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع**، دار الخلدونية، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٩٨-٩٩.

(٣٤) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج١، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠٠١، ص ١٤٩.

(٣٥) عبد الرحيم بن منصور، **عين الحوت مهد بني سليمان أول ملوك تلمسان**، دار ابن خلدون للنشر، تلمسان، ٢٠١١، ص ١٠ وما يليها.

(٣٦) المرجع نفسه، ص ٧٨.

(٣٧) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج١، ص ٤٦٦.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ٢٣٢.

(٣٩) المرجع نفسه، ص ٤٦٨.

(٤٠) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٤١) فيلالي مختار، المرجع السابق، ص٣٥-٥٣ صلاح مؤيد العقبي، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها**، دار البراق، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٣٠.

(٤٢) الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٤٣) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج١، ص ٢٨٦.

(٤٤) الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٤٥) عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٤٦) أبو القاسم سعد الله، المرع السابق، هج١، ٢٧٣.

(٤٧) أبو القاسم سعد الله، ج٢، ص ٤٢٩.

(٤٨) محمد بن عسكر، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، ط٣، تح: محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٣، ص١١١.

(٤٩) ابن القاضي المكناسي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار النصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٠٦.

(٥٠) عادل نهويض، **معجم أعلام الجزائر**، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ١٩٧١، ص٧٨-٧٧.

(٥١) ابن القاضي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٥.

(٥٢) أبو القاسم محمد الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت)، ص٤٩١. ابن مريم، المصدر سابق، ص٢٦١.

(٥٣) عادل نويهض، المرجع السابق، ص ٦٥.

(٥٤) الحفناوي، المرجع السابق، ج١، ص ٤٤.

(٥٥) ابن مريم، **البستان**، مقدمة التحقيق.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٥٧) نفسه، ٢٦٩.

(٥٨) محمد مرتاض، **من أعلام تلمسان مقارنة تاريخية فنية**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ٢٠٠٤، ص٣٠٧.

(٥٩) الحفناوي، المرجع السابق، ص ٤٦٣-٤٥٦.

(٦٠) محمد مرتاض، المرجع السابق، ص ٣١٦-٣١٧.

(٦١) الحفناوي، المصدر السابق.

(٦٢) محمد مرتاض، المرجع السابق، ص ٥٢٦.

(٦٣) المرجع نفسه، ص٥٢٧-٥٢٨.